أسامة بن منقذ وشعره*

للاستاذ أحمد أحمد بدوى

— ١ —

فى يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ هـ (يولية سنة ١٠٩٥ م) ولد أسامة بن منقذ فى أسرة توارثت إمارة «شيزر» وهى مدينة فى الشمال الغربى لحماة، تبعد عنها خمسة عشر ميلا، وتقع على هضبته يحيط بها نهر العاصى من جهات ثلاث، وتنهض فيها قلعة شامخة حصينة، وكان لهذه القلعة قيمتها فى عصر الحروب الصليبية، لمركزها الحربى الحصين، ومكانها بين الولايات السورية، فكانت مطمح الطامعين من أمراء المسلمين والصليبيين.

ولد أسامة لأب صالح، يقضى وقته بين تلاوة القرآن، والصيد فى النهار، ونسخ كتاب الله فى الليل، ووالدة شهرت بالشجاعة، والنخوة، والأقدام، وقد تركه والده منذ صغره يقتحم الأخطار، ويركب الصعب من الأمور، فلا ينهاه عن أن يمضى إلى حيث يحز رأسها، ويلقى بها فى الدار ميتة، وهو ثابت رابط الجأش، ولا يحول بينه وبين مصارعة الأسود بشيزر، وقتل ما يصرعه منها، وهكذا شب جريئا لا يهاب. ومما ساعده على ذلك أنه كان يشترك مع أبيه فى رياضته المفضلة عنده وهى الصيد.

إلى جانب هذه النشأة التى تعد للحرب والنضال، تلقى أسامة الثقافة التى كان يتلقاها الأمراء فى ذلك العصر، فدرس الحديث والأدب، والفقه، والنحو، واللغة، وحفظ الكثير من الشعر، وأخذ من ذلك بنصيب واف، يشهد له به كتبه، وما ضمنت من أحاديث كثيرة، متنوعة الأغراض، ومن مأثور كلام البلغاء من المتقدمين، وما استشهد به من شعر ومنثور، وما أورده فى شعره من ألفاظ لغوية استعملت فى معانيها الدقيقة مما لم يكن يجرى الا على أقلام كبار البلغاء، أخذ ذلك عن كبار الأساتذة، كما كانت البيئة التى عاش فيها بيئة أدبية ممتازة، فقد كان الأمراء من بنى منقذ ممن يقصدهم الشعراء والأدباء، كما أنهم كانوا علماء شعراء، وتحتفظ الأدب بكثير من أشعار أبيه وأعمامه وأجداده.

كان أسامة أثيرا لدى عمه أبى المساكر سلطان حاكم «شيزر» ولما لم يكن له عقب اتخذ أسامة ابنا له، وكان يرى فيه الأمير المستقبل لشيزر، ووارث الملك من بعده، فكان يكلفه من الأمور ما يتطلب شجاعة وجرأة. واشترك أسامة فى المعارك التى دارت بين أسرته وبين الصليبيين دفاعا عن مدينتهم شيزر. وعاش أسامة فى تلك المدينة بين حب والده وعطف عمه، غير أن هذا لم يلبث بعد أن رزق أولادا فى آخر أمره، أن دب الوهن والفتور إلى العلاقة التى تربطه بأسامة، وبدلا من حبه وعطفه عليه، بدأ الحسد والحقد يأخذان مكانهما من قلبه، خوفا على أولاده من مكانة أسامة، وحذرا أن يئول الملك إليه دونهم، فمضى أسامة إلى الموصل لدى عماد الدين زنكى الذى صار أكبر أبطال الحروب الصليبية فى وقته، وأول خطر حقيقى داهم للصليبيين، فانتظم أسامة فى جنده، وحارب تحت قيادته فى عدة معارك، ولكنه لم ينس وطنه الأول شيزر، عندما هاجمه الفرنج والروم، سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م)، فقد مضى إليه، وأبلى بلاء حسنا فى الدفاع عنه. وربما كان قد عزم على البقاء فى شيزر بين أهله الذين فقدوا والده سنة ٥٣١ هـ، غير أن عمه أبا المساكر لم يرض عن مقام أسامة بشيزر، فقد أيقن أنه أصبح خطرا على ملكه، وأن ليس لأبنائه سلامة إذا ظل أسامة فى شيزر، فأمره وإخوته بالرحيل، فتشتتوا فى البلاد، وكان فى ذلك الخير لهم، فإنهم نجوا من الزلازل التى هدمت شيزر، وقضت على بنى منقذ بأسرهم وذهبت بملكهم سنة ٥٥٢ هـ.

مضى أسامة يوم أخرج من شيزر إلى دمشق، واتصل بحاكمها معين الدين أنر، واعتمد هذا الحاكم على أسامة فى تصريف

* من مقدمة ديوانه الذى يظهر قريبا.

الشئون السياسية ، وقد نجح أسامة فى ذلك نجاحا رفع مكانته فى دمشق ، واستطاع فى تلك الحقبة أن يتصل بالفرنج عن قرب وأن يعرف الكثير من عاداتهم وأخلاقهم ، ولكن المقام لم يصف لأسامة بدمشق . ويظهر من القصيدة التى أرسلها إلى معين الدين أن يعاتبه فيها — أن السر فى نبو المقام بأسامة يعود إلى وشايات حملها الساعون إلى معين الدين فصدقها ، فانحرف قلبه عنه ، يدلنا على ذلك قول أسامة :

بلغ أميرى معين الدين مألكة ... من نازح الدار ، لكن وده أمم
هل فى القضية يا من فضل دولته ... وعدل سيرته بين الورى علم
تضييع واجب حقى بعد ماشهرت ... به النصيحة والأخلاص والخدم
وما ظننتك تنسى حق معرفتى ... «إن المعارف فى أهل النهى ذمم»
ولا اعتقدت الذى بينى وبينك من ... ود ، وإن أجلب الأعداء ينصرم
لكن ثقاتك مازالو بغشهم ... حتى استوت عندك الأنوار والظلم
والله ما نصحوا لما استشرتهم ... وكلهم ذو هوى فى الرأى متهم
كم حرفوا من مقال فى سفارتهم ... وكم سعوا بفساد ضل سعيهم

ويبدو من تلك القصيدة ، وما فيها من حياة وحرارة وقوة ، أن أسامة كان يضمر فى قلبه فيضا من الحب لمعين الدين ؛ وقد ختم قصيدته بعد عتاب طويل بقوله :

فاسلم ، فما عشت لى فالدهـــر طوع يدى
وكل ما نالنى من بؤسه نعم

ترك أسامة دمشق ، وسافر إلى القاهرة ، فوصل إليها فى جمادى الثانية سنة ٥٣٩ هـ (نوفمبر سنة ١١٤٤ م) فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله ، وكان معه والدته وزوجه وأخوه محمد نجم الدولة ، فأكرمه الخليفة أيما إكرام ، وأقطعه إقطاعا عاش به فى رغد من الحياة ، وخفض عيش . ولم يشأ أسامة فى أول الأمر أن يزج بنفسه فى الأحداث السياسية المصرية ، حتى إذا ولى الظافر ألقى بنفسه فى خضم هذه الأحداث ، حتى ليروى المؤرخون أنه اشترك فى المؤامرات التى انتهت بقتل الوزير ابن السلار ، والخليفة الظافر ، ورأى أسامة أن يعود بعد هذه الخطوب والحوادث إلى دمشق ، يرى أن الصلة كانت وثيقة بينه وبين الوزير المصرى الجديد : طلائع بن رزيك .

عاد أسامة إلى دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ومضت عشيرته لتلحق به ، ولكن السفينة التى كانت تحملهم أصابها عطب عند عكا التى كانت فى يد الصليبيين ، فنهب الفرنج ما معهم من المتاع ، وساموهم سوء العذاب ، حتى إذا وصلوا إلى دمشق ، كانوا قد فقدوا كل ما حملوه معهم من مصر ، وكان لذلك أكبر الأثر الأليم فى نفس أسامة .

واتصل أسامة فى دمشق بحاكمها نور الدين محمود ، أكبر أبطال الحروب الصليبية فى عصره ، وكثيرا ما أرسل إليه الوزير المصرى طلائع قصائد يحثه بها على أن يتوسط لدى نور الدين ، حتى تجتمع كلمة سوريا ومصر على جهاد العدو المشترك ، ولكن هذه القصائد لم تثمر ثمرتها . ويظهر أن كبر سن أسامة قد حال بينه وبين الاشتراك فى الوقائع الحربية التى شنها نور الدين ! وإن كان قد ساهم فى بعضها ، فقد حدثنا أبو شامة فى كتابه الروضتين عما أبداه أسامة من ضروب البسالة فى حصار قلعة حارم .

ويظهر أنه وجد بعد زهاء عشر سنين قضاها فى دمشق ، أنه فى حاجة إلى الراحة والبعد عن تكاليف السلطان وخدمة الملوك ، فمضى إلى حصن كيفا ، وهناك عكف على البحث والدرس والتأليف . وربما اختار أسامة هذا المكان لما كان فيه من مكتبات ضخمة غنية . ولكن هـــذه العزلة التى ارتضاها أسامة قطعها عودة صلاح الدين إلى دمشق ، وقد رأى فيه أسامة البطل المنقذ للبلاد ، فمضى إليه ، واستقبله صلاح الدين استقبالا حسنا ، فقد كانت تربطه به صلات وثيقة عند ما كانا معا فى بلاط نور الدين محمود ، فأعطاه صلاح الدين داراً وإقطاعا دارة ، وجالسه وآنسه وذاكره فى الأدب ، وكان يستشيره فيما يلم به ، وإذا مضى إلى الغزو كاتبه ، وأخبره بوقائعه ، وكان صلاح الدين معجبا بشعر أسامة ، مشغوفا بقراءة ديوانه ، وتأمل خواطره ، واستحسان روائع قصائده ، وكان ولده مرهف جليس صلاح الدين ، وصاحبه فى الحل والترحال .

عاش أسامة فى دمشق يشكو الكبر ، وقد ثقلت عليه الحياة ، لطول عمره ، حتى إذا كان الثالث والعشرون من رمضان سنة ٥٨٤ هـ

(نوفمبر سنة ١١٨٨ م م) توفى أسامة بعد أن أربى على التسعين ، ودفن فى سفح جبل قاسيون ، بدمشق .

— ٢ —

ترك أسامة عدة كتب عرفنا منها :

١ — كتاب الاعتبار الذى نشره المستشرق الفرنسى هرتويغ درنبورج ، وقد سجل فيه أسامة ذكرياته ، ومشاهداته ، من معارك حربية ، وأحداث سياسية ، فى مصر والشام ، ويصور الوقائع التى دارت بينه وبين الفرنج فى صدق واخلاص ، ويعلق على ما يرى ، ويشيد بالبطولة ، سواء أكانت من المسلمين أم من الصليبيين ، ويدون ما يراه من أعمال الأبطال ، ولو كانوا من صناديد الجند ، ويقيد الحوادث الفردية والغريبة ، وينقل إلينا ضوضاء المعارك ، ويصف صلة المسلمين يومئذ بالفرنج ، فى السلم والحرب ، ويصور طبائع الفرنج وأخلاقهم وعقائدهم ، ويحوى تأملات لأسامة بشأن طول العمر ، وألحق بالكتاب قصصا ونوادر شاهد بعضها ، وسمع بعضها من ثقة ، وقيمة الكتاب فى أن ما رواه من حوادث تاريخية ومعارك ، سجلها بعد أن رآها ، فكان فيها شاهد عيان ، ولذا كان من أهم ينابيع التاريخ لتلك الحقبة من عصر الحروب الصليبية ، وقد كتبه أسامة وهو ابن تسعين سنة .

٢ — كتاب لباب الآداب ، نشره الأستاذ أحمد محمد شاكر ، وقد رتبه مؤلفه على سبعة كتب : الأول فى الوصايا ، والثانى فى السياسة ، والثالث فى الكرم ، والرابع فى الشجاعة ، والخامس فى الأدب بمعنى كرم الخلق ، وقسمه خمسة عشر فصلا ، وهو يورد فى هذه الكتب ما يتعلق بها ، مما جاء فى القرآن الكريم ، ثم ما ورد من أحاديث تتصل به ، ثم يورد المأثور من أقوال الحكماء . والكتاب السادس فى البلاغة ، تحدث فيه عن إعجاز القرآن ، وأوردجوامع كلم الرسول ، ونماذج من كلام البلغاء ، وجاء بكثير من محاسن الشعر الموجز البليغ الدال على مكارم الأخلاق ، وقطعا لأغراض مختلفة من الشعر . والكتاب السابع فى الحكمة نهج فيه نهج سلفه من الأبواب ، والكتاب يدل على اطلاع واسع ، وذوق دقيق فى الاختيار .

٣ — كتاب العصا ، وقد أورد فيه شواهد نثرية وشعرية تتحدث عن العصا التى عرفت فى التاريخ ، وأثبت فيه أيضا كثيرا من شعره .

٤ — كتاب البديع ، وقد جمع فيه ما تفرق فى كتب العلماء المتقدمين ، المصنفة فى نقد الشعر ، وذكر محاسنه وعيوبه ، وقد انتقد هذا الكتاب ابن أبى الإصبع فى كتاب بدائع القرآن ، ومن الكتاب نسخة خطية بدار الكتب .

٥ — كتاب المنازل والديار ، قال عنه دائرة المعارف الإسلامية ، إنه ترجمة كتبها عن نفسه عام ٥٦٨ هـ (١١٧٢م) فى أثناء إقامته فى حصن كيفا ، والدافع له على كتابته زلزال أغسطس سنة ١١٥٧ م ، وهو يتضمن شواهد شعرية كثيرة عن المنازل والديار والأطلال والربع والدمن والرسم وغيرها ، وبالمتحف الأسيوى بلننغراد نسخة منه .

٦ — مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزى

٧ — مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى أيضا . والكتابان مخطوطان بدار الكتب .

٨ — تاريخ الفلاع والحصون .

٩ — أخبار النساء

١٠ — التاريخ البدرى ، وقد جمع فيه أسماء من شهد بدرا من الفريقين .

١١ — التجائر المربحة والمساعى المنجحة .

١٢ — النوم والأحلام .

١٣ — الشيب والشباب .

١٤ — التأسى والتسلى .

١٥ — ذيل يتيمة الدهر .

١٦ — أخبار النساء .

١٧ — نصيحة الرعاة .

وهذه الكتب العشرة قد نسبها إليه مؤرخوه ، أو أشار إليها فى كتبه التى بين أيدينا .

(يتبع) أحمد أحمد بدوى